المرأةُ ... وشاعرُ المرأة

كان الشابى شاعرًا رومانسيًا بأصدق معانى الكلمة وأعمقها، فأين يذهب الشاعر الذى ترك موضوعات المدح والهجاء وشعر المناسبات الخارجية ؟ ... إن عالمه الآن بعد أن تحرر من عبء المناسبات الخارجية يبدأ من نفسه ، من مشاعره الذاتية ، وأرقى شعور بالنسبة له ، بل إن أرقى شعور فى هذا العالم هو : الحب .

والشاعر الرومانسى هو أكثر من يعرف قيمة الحب فى الحياة ، والشاعر الرومانسى يبدأ حياته النفسية بالشعور بالانفصال عن العالم الواقعى ، والغربة عن هذا العالم ، وهو يعيش بخياله مع أطياف الحب وصوره ، ويبنى لنفسه عالمًا من أغصان الطبيعة وأشجارها وزهورها يأوى إليه ويرتاح فيه ليفكر فى قلبه وفى حبيبته الموعودة .

لقد وقف الشابى إلى جانب المصلح الاجتماعى التونسى (الطاهر حداد) فى دعوته إلى تحرير المرأة ، وكان (الطاهر حداد) يشبه إلى حد كبير قاسم أمين فى مصر ، وقد ألف كتابًا بعنوان (امرأتنا فى الشريعة والمجتمع) يقول فيه : إذا كنا نحتقر المرأة ولا نعبأ بما هى فيه من هوان وسقوط فإنما ذلك صورة من احتقارنا لأنفسنا ، ورضائنا بما نحن فيه من هوان وسقوط ، وإذا كنا نحبها ونحترمها ونسعى لتكمل ذاتها فليس ذلك إلا صورة من حبنا واحترامنا لأنفسنا وسعينا فى تكميل ذاتنا .)

ولقد لقيت دعوة الطاهر حداد سخطًا عنيفًا من البيئة الفكرية والاجتماعية

فى ذلك الحين ، ولكنها لقيت التأييد الكامل من الشابى ، فقد كان الشابى ثائرًا بعقله وقلبه على الوضع الذى تعانيه المرأة فى المجتمع التونسى ، وكان ثائرًا على وضع المرأة فى الأدب العربى القديم ، فالشاعر القديم ، لم يكن يفهم من المرأة كما يقول الشابى : (إلا أنهاجسد يشتهى ، ومتعة من منع العيش الدنىء ، أما تلك النظرة السامية التى يمتزج فيها الحب بالإجلال والشغف بالعبادة ... أما تلك النظرة الروحية العميقة التى نجدها عند الشعراء الأوروبيين فإنها منعدمة أو كالمنعدمة فى الأدب العربى لا أستثنى إلا الأندر الأقل على الرغم من أن أكثره (أى الأدب العربى) فى المرأة ... لم يعرف العرب ولا الشاعر العربى تلك النظرة الفنية التى تعد المرأة كقطعة فنية من فنون السماء يلتمس لديها الوحى والإلهام ، ولم يحاول الشاعر العربى أن يحس بما وراء الجسد من روح جميلة ساحرة تحمل بين جنبيها سعادة الحب ، ومعنى الأمومة وهما أقدس ما فى الوجود) .

هذا هو ما قاله أبو القاسم فى كتابه (عن الخيال الشعرى عند العرب) وهذه آراء لا يمكننا أن نوافق الشابى على صحتها المطلقة لما تتضمنه هذه الآراء من تجاهل لمدرسة كاملة ورائعة من مدارس الشعر العربى ، هذه المدرسة هى مدرسة (الحب المثالى) أو (الحب العذرى) على أن الذى يهمنا هنا هو أن كلمات الشابى تدل على ثورته على وضع المرأة العربية ، ولقد حاول الشابى فى شعره أن يعبر عن ثورته العقلية على وضع المرأة فى المجتع العربى ووضعها فى الأدب، وأن يستجيب فى نفس الوقت لظمئه الروحى إلى مثال رفيع للمرأة يملأ قلبه ويغنى مشاعره . ولذلك جاء شعره عن المرأة معبرًا عن الجانب الإنسانى الرفيع فيها ، يحمل معنى القدسة للمرأة ، ويربط بينها وبين أجمل ما فى الطبيعة من مظاهر ، ويغنى لمعنى الحب ، ويجد فى هذا المغنى دفئًا ، ويجد فيه أيضًا عالمًا سحريًا رقيقًا يعطيه من صور الحياة ما يفوق الجمال الحسى الملموس بصورة

كبيرة ، والعلاقات العاطفية فى حياة الشابى غامضة ، فلا توجد معلومات دقيقة عنها ، غير إن الكتاب الذين عاصروه وعرفوا كثيرًا من حقائق حياته مثل الأستاذ (زين العابدين السنوسى) يؤكدون أنه عرف الحب فى شبابه الأول ، وكانت حبيبته فتاة تربى معها فى بلدته (الشابية) ، وعندما سافر الشاعر إلى تونس للدراسة استولى على هذه الفتاة غمّ شديد أدى بها إلى الموت بسبب فراق حبيبها ، وقد حزن الشابى عليها حزنًا عميقا كان فيما يقول صديقه زين العابدين السنوسى سببًا من أسباب مرضه الذى أدى به إلى الموت. تزوج الشابى بعد ذلك وأنجب من زوجته قبل أن يموت طفلين هما : محمد الصادق الذى يعمل ضابطا فى سلاح المشاة بالجيش التونسى وقد ولد سنة ١٩٣٠ ، أما الابن الثانى فهو (جلال) وقد ولد فى أول سنة ١٩٣٤ وقبل وفاة والده .

هذه هى كل المعلومات المعروفة عن حياته العاطفية ، وهى معلومات ناقصة مليئة بالفجوات التى تحتاج إلى تفسير معقول ، كما أنه ليس هناك إجابة دقيقة عن الأسئلة التى تثور حول زواجه ، وخاصة هذا السؤال الرئيسى : هل تم هذا الزواج عن حب أم أنه كان زواجًا تقليديًا ؟ .

ولكن الذى يقوله لنا شعره هو أنه ظل يغنى للحب حتى آخر لحظة فى حياته ، وغناؤه هو غناء الحرمان والشوق إلى مثل أعلى لم يتحقق فى حياته للمرأة ، وهو غناء الذى يؤمن أن الحب هو معنى أساسى من معانى الحياة وأنه أرقى طريق للخلاص من مشاكلها وعذابها .

والحب عند الشابى حب رومانسى صادق ، وأول مظاهر الرومانسية فيه هو المثالية الكاملة ، فالمرأة التى يحبها هى امرأة من صنع خياله السامى ... إنها امرأة مثالية (تتكون) من الأحلام والأطياف والزهور ، وهى ليست من جسد بل من روح شفافة ، وليست مزيجًا من الخير والشر ، ولكنها من خير مطلق

وصفاء مطلق ، وحبها ليس حبًا حسيًا ، بل أنه لا يختلط أبدًا بأى معنى من معانى الحس ، أنه حب روحى شفاف يسمو فوق نداء الغريزة ويختلف عن ذلك الحب العادى الذى يعرفه الناس .

وهذه المثالية فى الحب والتى يمثلها الشابى تمثيلاً فنيًا صادقًا هى ظاهرة مشتركة بينه وبين الفنانين الرومانسيين فى الأدب الإنسانى كله ، إنه حب (شيلى) و (وردزورث) و (دى موسيه) وغيرهم من شعراء الرومانسية الأوروبية الكبار ، فكل هؤلاء الشعراء يشتركون فى سخطهم على الواقع وهروبهم منه إلى عالم خيالى مثالى للحب تعيش فيه أحلامهم عن المرأة الكاملة كأنها حقائق الحياة الثابتة الوحيدة التى يرونها ويعترفون بها .. إنهم يعوضون ما يحسونه من نقص فى واقع الحياة بما فى أحلامهم من كمال ومثالية .

ولعل مثالية الحب عند الشابى لم تتفتح مثلما تفتحت فى قصيدته المشهورة (صلوات فى هيكل الحب) ففى هذه القصيدة صورة شفافة رقيقة للمرأة ، وكأنها امرأة تجىء من عالم ملائكى سحرى لم يعرفه البشر .

يقول الشابى فى هذه القصيدة :

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام ... كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ... كالورد ، كابتسام الوليد
يا لها من وداعة وجمال ... وشباب منعم أملود
يا لها من طهارة ، تبعث التقديس ... فى مهجة الشقى العنيد
يا لها رقة يكاد يرف النور ... دُ منها فى الصخرة الجلمود
أنت ما أنت ؟ أنت رسم جميل ... عبقرى من فنّ هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وسحر ... وجمال مقدس معبود

ويستمر الشابى فى القصيدة على هذه الطريقة فى الإحساس والتصوير الفنى ، وكل صور المرأة عنده لا تختلف عن هذه الصورة الملائكية الكاملة التى تجمع أجمل ما فى العالم ، وتمثل كل المعانى الإنسانية الراقية الشفافة .

وإذا كان الحب عند الشابى عاطفة مقدسة تتجه إلى كائن مقدس هو المرأة ، فإن هذا الحب المثالى هو حب حزين لأنه يصطدم بعقبات ومشاكل تجعل منه حبًا يائسًا (فاجعًا) فالحب فى كثير من قصائده يقترن بالموت ، إن هناك دائمًا عقبة تعترض هذا الحب وتحوله إلى مأساة .

والحب الفاشل (التراجيدى) هو الحب الشائع المعروف عند الرومانسيين لأنه يغذى فيهم ذلك الشعور القريب إلى نفوسهم وهو شعور الحزن ، وهذا النوع من الحزن أيضًا هو منطق طبيعى لأحلام خيالية تصطدم بقوانين الواقع ، ولو عدنا إلى الإنتاج الأدبى الرومانسى المعروف لوجدناه دائمًا مستمدًا من عذاب الحب الفاشل ... ففى (غادة الكاميليا) لألكسندر دوماس يفشل الحب بسبب معارضة أسرة البطل لزواجه من حبيبته لأنها ذات سمعة سيئة ، وفى (هيلويز الجديدة) لجان جاك روسو يموت الحب بين الحبيبين لاختلاف الطبقة الاجتماعية بينهما ... وهكذا يصطدم الحب دائمًا بعقبة من العقبات فيصبح حبًا باكيًا حزينًا فاشلاً .

وفى شعر الشابى نجد هذه الظاهرة بوضوح فى كثير من قصائده ... يقول فى قصيدة (الذكرى) .

كنا كزوجى طائر فى دوحة الحب الأمين
نتلو أناشيد المنى بين الخمائل والغصون
متغردين مع البلابل فى السهول وفى الحزون

مـــلأ الهـــوى كـــأس الحيـــاة لنـــا ، وشـــعثها الفتـــون
حـــتى إذا كـــدنا نرشـــف خمرهـــا ، غـــضب المنـــون
فـــأراق خمـــر الحـــب فى وادى الكآبـــة والأنـــين
وأهـــاب بالحـــب الوديـــع ، فـــودّع العـــيش الأمـــين
وشـــدا بلحـــن المـــوت فى الأفـــق الحـــزين المـــستكين
ثم اختفى خلف الغيـــــــوم كأنـــه الطيـــف الحزيـــن

وفى قصيدة أخرى عنوانها (جدول الحب) يقترن الموت بالحب أيضًا :

قـــد كـــان لى مـــا بـــين أحلامـــى الجميلـــة جـــدول
يجـــرى بـــه مـــاء المحبـــة طـــاهرًا يتسلـــسل
تـــسعى بـــه الأمـــواج باسمـــة كـــأحلام الـــصبا
بيـــضاء ناصـــعة ، ضـــحوكًا مثـــل أزهـــار الـــربى
مياســـة كعـــرائس الفـــردوس بـــين حقولـــه
تتلـــو أناشـــيد المـــنى فى مـــده وقفولـــه
. . . . . .
قـــد كـــان ذلـــك كلـــه بـــالأمس ! بـــالأمس البعيـــد
والأمس قـــد جرفتـــه مقهـــورًا يـــد الموت العتيـــد

وكثير من قصائد الشابى عن الحب تعبر عن نفس المأساة : مأساة اقتران الحب بالموت ، وذبول الزهور على يد الخريف القاسى الذى يحمل إليها رياح العدم الصفراء فتقضى على كل ما فيها من علامات الحياة .

ولكنه رغم ذلك كله يشعر أن معنى الحياة الرئيسى هو الحب ، بل إن الموت لا يصبح موتًا إلا لأنه يقضى على الحب ، كأن الحب عند الشاعر قد أصبح هو المعنى الوحيد للحياة ... أو كأنه مرادف جديد لكلمة الحياة ، وفى قصيدته الجميلة (أنا أبكيك للحب) يقول الشابى :

لست يا أمسى أبكيك لمجد أو لجاه
سلبته منى الدنيا وبزتنى رداه
فأنا أحتقر المجد وأوهام الحياة
أو لعمر ، بلغت منه الليالى منتهاه
وتلاشت فى خضم الزمن الطاغى قواه
فأنا ما زلت فى فجر شبابى أو ضحاه
إنما أبكيك للحب الذى كان بهاه
يملأ الدنيا فأنى سرت فى الدنيا أراه

ففقدان الحب هو المأساة التى يعانى منها والتى تحمل إلى قلبه وحياته ريح العدم ... وهى التى تجعله يبكى على الأمس وعلى الحياة .

وعند الشابى قصيدة تحمل صورة جديدة للمرأة هى : المرأة الأم ، وهذه القصيدة تعتبر من أجمل شعره بما فيها من صور حية ، وعاطفة حارة صادقة ...تلك القصيدة هى (قلب الأم) ، وفيها يصور وفاء الأمومة وثبات عواطفها ، وعاطفة الأمومة هنا أيضًا عاطفة مصدومة حزينة فقد مات (الطفل) ونسيه الصحاب الصغار ، ونسيته الطبيعة ، ولكن قلب الأم مازال يذكره ، وما زال باقيًا على حبه وحزنه :

كل نسوك ولم يعودوا يذكرونك فى الحياة
والدهر يدفن فى ظلام الموت حتى الذكريات
إلا فؤادًا ظل يخفق فى الوجود إلى لقاك
ويود لو بذل الحياة إلى المنية وافتداك
فإذا رأى طفلا بكاك ، وإن رأى شبحًا دعاك
يصغى لصوتك فى الوجود ولا يرى إلا بهاك
يصغى لنغمتك الجميلة فى خرير الساقية
فى رنة المزمار ، فى لغو الطيور الشادية
فى ضجة البحر المجلجل فى هدير العاصفة
فى لجة الغابات ، فى صوت الرعود القاصفة
فى نغية الحمل الوديع وفى أناشيد الرعاة
بين المروج الخضر والسفح المجلل بالنبات

ويستمر الشابى فى الربط بين قلب الأم الحزينة وبين صور الطبيعة ومعانيها المختلفة حتى تصبح أحزان الأم متصلة بكل ما فى الوجود ، ذائبة فيه ، وبهذه الطريقة يرتفع قلب الأم فى القصيدة حتى يصبح قلبًا مقدسًا ، شديد الرحابة والشمول ، عميق الإنسانية بصورة لا يعرفها أى قلب بشرى آخر .

هذه هى المرأة عند الشابى وهذا هو الحب .. إن المرأة هى الملاك الحنون الذى يهبط من عالم الخيال السحرى ليشفى الجراح ، ويحمل رحيق الوجود المقدس إلى القلوب التى تبحث عن مأوى وتحلم بالدفء ... وهذا هو الحب: زهرة الأزهار ومعنى المعانى فى هذه الحياة ... إنه شىء مثالى شفاف لا يكاد

يلمس الأرض بقدميه ، بل هو عال رفيع يطير فى السماء ، نقى صاف لم يتلوث بالتراب أو بتجارب الواقع ، وهو حب حزين رغم ذلك لأن الموت مثل الثعبان الذى يختفى فى زوايا الحياة ليلدغ الزهور الجميلة ويقضى عليها وهى فى روعة شبابها السحرى العميق .

وهذه النظرة الرفيعة للمرأة والحب كانت خير مساندة فنية لدعوة تحرير المرأة فى تونس وفى الوطن العربى بشكل عام ، وهذا الأثر الاجتماعى البارز للشعر الرومانسى فى معركة تحرير المرأة شبيه تمامًا بالأثر الذى تركه الأدب الرومانسى فى المجتمع الأوروبى ، فقد كان تقديس الرومانسيين للحب واعتباره العلاقة الإنسانية الوحيدة التى تربط الرجل بالمرأة ، بحيث لا يصح أن يقوم الزواج على غير هذه العلاقة العميقة ، فلا شىء يسمو على شريعة الحب وقانون الحب ... كانت هذه النظرة الرومانسية للحب هى السبب الأساسى فى إقرار الزواج المدنى فى المجتمع المسيحى الأوروبى ، والزواج المدنى هو ثورة على القوانين التي تجعل الزواج المسيحي (صداقة أبدية) كما قال البعض ، وهى القوانين التى سمتها جورج صاند (قوانين البؤس والعبودية) لأنها تفرض على المرأة الاستمرار فى الزواج حتى ولو اكتشفت أنها لا تحب زوجها.

والزواج المدنى ليس الثمرة الوحيدة للأدب الرومانسى فى أوروبا ، بل كانت ثمرة هذا الأدب بالإضافة للجهود الفكرية والاجتماعية والسياسية الأخرى هى خروج المرأة إلى ميدان العمل وحصولها على كل حقوقها السياسية والاجتماعية فى المجتمع الأوروبى .